

لترتيب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ١٩ -

—>>><<<—

بين الرافعي وط (٣)

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، لما كانت في أولها إلا خصومة بين مذهبين في الأدب وأسلوبين في الكتابة ، فما لبثت من بعد أن استحوطت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بالفاظ الكفر والضلال والالحاد والغفلة والتمصب والجود ، وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه في الأدب ومذهبه في الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه في السياسة . والرافعي رجل لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما يتفصل عن شيء أو يتميز منه ، ولكنه في السياسة كان يتحلى بغضبية الجمل التام ، فلا تعرف له رأياً في السياسة يتواخذه أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من الجمل السياسي من متاعب ! وكما ألصق به من نهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توقيفه في هذه المعركة

في سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلبه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معه الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربي بالجامعة .

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي ، على الأسلوب الذي رآه لهم ؛ فلما استدار العام

جمع طه محاضراته في كتاب أخرجه للناس باسم « في الشعر الجاهلي » ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجماً في كلية الآداب ، فقرأوا رأياً جديداً في الدين والقرآن رجح ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتاب السياسة الأسبوعية . فقال الآكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي . وقال الآقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي . وظل الرافعي ساكناً ، إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فطحي القاضي في السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق ، فكان فيهما الانذار للرافعي بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعي قلبه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة « كوكب الشرق » ، ثم مقالات ثلاثاً بعده ، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول : خصومة بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث . على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثأراً عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئاً من أسلوبه المر في النقد ، ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفهم أكثر مما يريد أن يشار وينقم . ثم تلقى كتاب الدكتور طه حين ققرأه ، فثارت ثأرته لأمر جديد ...

لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأياً من الرأي في الأدب ، أو يختص رواية من الرواية في التاريخ ؛ لم يكن أحد من كتاب العربية ليتربص لنفسه في ذلك فيجمل حقيقة من حقائق الدين في موضع الشك ، أو تصك من تصوص القرآن في موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخص لنفسه ، ومنح نفسه الحق في أن يقول قالة في القرآن وفي الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعي ما قال طه ، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه في أول أمره عند الرافعي كاتباً يزعم أن له مذهباً

فاستمر في حملته على الدكتور طه حسين ، وظهر يومئذ هو الدكتور ذكي مبارك ... ١

لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الرافعي في كوكب الشرق صحيفة مدوية وصلت إلى كل أذن ؛ فاحسب أحداً في أدباء العربية وقراءها قد فاته منها شيء . لقد كان المصريون وقتئذ مكومة أفواههم عن السياسة والحديث في شئونهم فلعلهم وجدوا في هذه المقالات ما يعزهم عن شيء بشيء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدو سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وعضو الأحرار الدستوريين

لا أزعج أن اهتمام الناس جميعاً في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم في شئون الأدب رأى ، أولهم في الدود عن الإسلام حيية ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسي جاء اتفاقاً ومصادفة في هذا الوقت نفسه ليكون تأييداً لقول الله وانتصاراً لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها — لسبب أدبي أو لسبب سياسي — قد بعثت روحاً دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألقت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة ، ونهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذود عن دين الله

وإني لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات أنني — وكنت طالباً ... لم أكن أطبق الانتظار حتى يبعث الصنف إلى الحى الذى أسكنه لأخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجاعة من الطلاب نستعمل فنقطع الطريق من النيرة إلى باب اللوق راجلين لنشتري من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس

وتطورت السياسة المصرية ، وتحلى زيور باشا عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلان سعد ؛ وعكف نواب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ؛ وما يزال في آذانهم صدى يرن عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته في محاكمته . وقال النواب : نحن نريد . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتنادى عدلى رئيس الحكومة

جديداً في الأدب ، فعاد مبتدعاً مُضِلّاً له مذهب جديد في الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوى الثائر لمرضه أن يُنْهَكَ ، كان الرافعي يومئذ ؛ قضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته في طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته ثائرة محتاجة تغور بالفيظ وبالحمية الدينية وبالمصيبة للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم ونسى في هذه المقالات كل اعتبار مما تقوم به الصلوات بين الناس ، فما كان يكتب تقدماً في الأدب ، بل يصتب لهيباً وحماً وقذائف لا تبيح على شيء . وكان ميدانه في جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هي جريدة الأمة وجريدة سعد وجريدة الشرق العربي كله ؛ فمن ذلك لم يبق في مصر قارى ولا كاتب إلا صار له رأى في طه حسين وفي دينه ، وإن للأمة من قبل رأياً في وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية في رأى الشعب ، وطه حسين هو عدو سعد

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعي تؤيده وتشد أزره ، وإن لم يكن للرافعي في السياسة باع ولا ذراع وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد وتساورت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير في وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ، ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامى العام ... ومضى الرافعي في حملته تؤيده كل القوى وتشد أزره كل السلطات

ونشطت النيابة العمومية لتتظر في شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقرع العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً ، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكن الرافعي لم يقنع قضى في النقد على جادته

ولم نجد الجامعة في النهاية بُدّاً من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتتبع تداوله ، لعل ذلك يرد الفتنة التي توشك أن تعصف بكل شيء حتى الجامعة ، ولكن الرافعي لم يقنع

ماني جميعته . وكم مقال من مقالات ظه حسين قرأه على الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعني . وكم مقال أملاه على الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف من بعينه الرافعي به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات للرافعي : أرجو أن تعدّل في أسلوب هذا المقال — مما ينشر في الرسالة — فإني لأحب أن يظن طه أنك تعنيه بشئ تنشره في الرسالة وعلى تبعته عنده

ولما ثارت في الجامعة في العام الماضي مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، كتب الرافعي مقالا للرسالة غمر فيه طه وحياً شباب الجامعة ، ولم يجد الأستاذ الزيات بداً من نشره . وفطن الرافعي بمقاله ذلك وحسن عنده وقعه ، فأنشأ تنمة له بعنوان « شيطان وشيطانة » يعني طه وتلميذته ، ولكن الزيات وقف له واحتج حجة ، رعاية للصديق القديم طه . وكان أول مقال يكتبه الرافعي فتزده له الرسالة . وقد اغتاض الرافعي لذلك غيظاً شديداً ، وأحسبه مات وفي نفسه حسرة من عدم نشر هذا المقال . لو كان لي أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لأوجبت على الرسالة أن تنشره بحق التاريخ الذي لا يحابي الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجد ؟ الأستاذ الزيات يقول : لقد رددته إليه . والدكتور الرافعي يقول : لم أجدّه على مكتب أبي ؛ وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل ولم يتلاق الرافعي وطه وجهاً لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، ولكن المارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان

ولما اشترك الرافعي في المباراة الأدبية في العام الماضي ، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان بطمع ، لم ينسب ذلك لشيء إلا لأن طه كان عضواً في اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبتته على ما فيه ، ليس فيه رأي ولا رأي أحد معي ؛ ولكنه شيء مما حكاه لي الرافعي أو قرأت في كتبه ، فكتبت في موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالي فيه إلا الرواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان على معيبة أو ملام

محمد سعيد العمارة

« شبرا »

وسعد رئيس النواب ؛ فقامت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتمعدت المشكلة ...

وسمى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل عبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية تقسّط التبعة عن الحكومة ، ويُنفذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء وكان بعد ذلك ما كان

وإذاً كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال على ماهر وزير المعارف ، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غيّر من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستوري ... ولكنه ظل اقتراحاً لنير التنفيذ

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله أثر فيه أي أثر ؛ فلو لا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولما كان في التاريخ الأدبي أو السياسي لهذه الحقبة شيء مما كان

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً آخر ، هو أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : « المعركة تحت راية القرآن » وهو جماع رأي الرافعي في القديم والجديد ، وهو أسلوب في النقد ستحدث عنه بعد

ولقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظل قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هي خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتها ؛ بل هي خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً مادام في العربية حياة وقدرة على البقاء

وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليفغز طه في أدبه ، أو وجد طه ساحة لبئال من الرافعي في فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما